ذكرى صَديقين

تأليف: الدكتور عبدالله الطيّب

صدر ١٩٨٧م - ١٤٠٨هـ

Dr. Binibrahim Archive

ذكرى صَديقين

تأليف : الدكتور عبدالله الطيّب

صدر ١٩٨٧م - ١٤٠٨هـ

Dr. Binibrahim Archive

من سلال اللامعقول

من سلال اللامعقول ...

ما فائدة الذكريات التي يكتبها الأدباء

حكايتي جميلة ...
أمثالها قليلة ...
كل امرىء منا يحب جيله
حكايتي قصيرة
أمثالها كثيرة
كل امرىء منا يحب دوره (بضم الدال بعدها واو أي دياره جمع دار)
قد قلت لما انتظم القطار
في سيره ونأت الديار
هل عمرنا جميعه أسفار
بل عمرنا يا صاح
مضى مع الرياح
ولم نصب في العيش من نجاح
يا صاح بعض الناس كالحمير
ولن يزيدوك سوى تخسير
فخذ حديث الصدق من تسطيرى
فما بدا معناه فاغتنمه
هذا وما لم يبد لا تلمه
بعض الكلام الرمز فلتعلمه

بلى . المذكرات جزء من الإنسان . وجزء من أدب المؤانسة ، من مساوىء المطبعة العصرية انها نقلت كثيرا من الثرثرة الى الورق فأصبح الكلام المكتوب معرضا لما يعترى اساليب المحادثات من ضروب الإسفاف . و ينشأ من ذلك تضييع لزمن القارىء . كما نرى من تضييع زمن السامع الى هراء المحادثات . بعض المحادثات ساحر ومفيد ومفرح وليس بهراء ولذلك زعم الجاحظ انه عندما يذهب تقدم السن بمعظم ملذات الحياة لا تبقى لذة حقة الالذة الحديث . ضياع الزمن في التفاهات من الآفات التي لا مفر منها في هذه الحياة الدنيا . لذلك فالشكوى في هذا الصدد قليلة الجدوى . قلّ من يعيش زمنه كله غيرّ ضائع . قلّ من يستطيع ذلك ، كما لا نستطيع مثلا أن نستغني بخلاصات الطعام عن كثير من الحشو والقشور . وربّ زاعم أن الحشو والقشور ينشأ عنها جانب كبير من الغذاء .

وما خلا الكلام المكتوب من العصور القديمة من ضروب حشو وقشور . الكتابة بنت الرو ية . ولكن

ليس كل صاحب رو ية بمجيد . أمثال أبي الطيب وأبي عثمان قلة . والغثاء كثير وحدّث عن البحر ولا حرج .

كل أمر يستمر على حالة واحدة يصحبه السأم . هل هذا صحيح ؟

في التجارب أن الحب لا يسأمه الإنسان الا بعد الوصل اما قبل الوصل فلا . حتى بعد اليأس المطلق والتسلّي تبقى من الأشواق بقية لا يذهبها إلا الفناء . سيصيب الفناء صورة جيوكندا وشعر امرىء القيس . إلا ما زعمه العقاد حيث قال :

الشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن

وهذه دعوى كبيرة لان الرحمن لا يتطرق اليه الفناء جل جلاله . نعم نفخ الرحمن من روحه في طينة أدم بعد أن سواها ووقع الملائكة ساجدين إلا إبليس . وأكثر الشعر على أرجح الاقوال من نَفَس الشيطان وعلى هذا يجوز لقارىء أن يحرف كلام العقاد رحمه الله فيصير:

الشعر من نفس الشيطان مقتبس والشاعر الفذ بين الناس شيطان

والى هذا المعنى أو قريب منه ذهب جرير حيث قال :

أيام يدعونني الشيطان من غَزَلي وكنَّ يحببنني اذ كنتُ شيطانا

أي شاعرا مبدعا في فن الغزل وهو الفن الذي أرادَ العقاد رحمه الله أن يكون فيه هو الشاعر الفذ .

شذى زهرٍ ولا زَهْرُ

كان أخونا الاستاذ حسن الطاهر زورق يحسن الترنم بهذه القصيدة ، يترنم بصوت ذي غنن وعذوبة وعمق . وكان بشعر العقاد معجبا . وكان يحب شعر التيجاني يوسف بشير.

وأكاد أسمع الآن صفاء رنة غُنَّة صوته بقوله :

إيمان من يعبد الحُسْنَ في عيونِ النصارى

وكان أخونا الدكتور أحمد الطيب وأخونا الأستاذ عبد الرحيم الأمين تعجبهما هذه الرائية من شعر العقاد أيما عجب ، ولا سيما قوله :

خُذُوا دنيا كمو عنا فَدُنْيَاوَاتُنا كثر
خذوا الدنيا بأجمعها حبيب واحد ذخر

رحمهم الله جميعا .

كان العقاد رحمه الله شديد التأثر بوليمْ هاردي وربما سرق منه . والسرقة في الشعر فاشية وهذا أمر تنبه له أبوعثمان ونبه عليه وهو من تعلم حذقاً و براعة .

في شعر هاردي تفكير وتعب وعاطفة حقة ولكن منحوتة نحتا من حجر شرس . نحوٌ من ذلك عند العقاد .

صدق الجاحظ ، الشعر يستعصى على الترجمة .

ولكن دعني أنقل إليك معنى عاما من قطعة له عنوانها ترجمته دعني أتمتع :

دعني أتمتع بالأرض لا أقل
لأن القوة الفاعلة لكل الإبداع
عندما صورت محاسنها
كانت لها مآرب غير مجرد سروري أنا
تمر بطريق ممشاي بخِفَّةٍ حسناء
لا تلقى حرفا من كلام أو أية إشارة
ولكن تنشرح نفسي لجوها المتجاهل المعرض
وأحمد الشفتين وهما غير مرادتين لفمي
من مسودات أغنيتي المؤثرة
التي ألهمتها مناظر وأحلام غير معروفة
سأصب النشوات التي تنتمي
إلى غيرى كما لو كانت هي نشواتي
و يوما ما في الأزل المقبل نحو الفردوس
وكل الباركين الذين فيها لَوْ هؤلاء حقا وجود
سأرفع جذلان من بعيد وأمد الطرف
حتى ولو لم يكن فيها مكان لي

مسكين توماس هاردي (١٨٤٠ — ١٩٢٨ م) كا من أهل الشك والذي لا يوجد له مكان في الجنة فهو من أهل النار في العذاب الشديد . أحسبه لو كان من شعراء العرب القدماء من أهل الجاهلية لكان أبو العلاء أدخله الجنة كما أدخل الأعشى والحطيئة واحتال على ذلك ببعض الاحتيال ، إذ قد كان هو من أهل الشك بلا ريب . وَعَدَّهُ ابن عقيل الحنبلي من أهل الكفر والإلحاد .

تعجبنى عاطفة شيلى المندفعة الفوارة :

حيهلا بك أيها الروح المرح
لم تكن أبداً أنت من الطير
أنت الذي من السماء أو قريب منها
تصب ملء قلبك في نغمات مترعة من الفن اللامصنوع

حديث الشعر لا يمل . وترجمته لا تستطاع . إلا أن يكون ذلك حذوا آخر ينشأ منه نغم جديد .

كان أخونا الدرديري ، الأستاذ التابه الدرديري محمد عثمان حفظه الله بها شديد الإعجاب فكنا نقرأها معا :

هكذا إلى أعلى فأعلى
من الأرض أنت تنبعثين
مثل سحابة من نار
في الزرقة العميقة تسبحين
وَتُغَنِّينَ وأنت صاعدة وتصعدين وأنت تغنين

كان شيلي (١٧٩٢ — ١٨٢٢) برومانسيته حبيبا جدًا إلينا . يقول في كلمته عن الريح الغربية ما عسى أن يكون معناه على وجه التقريب :

لو قد كنت ورقة يابسة حتى تحمليها
لو قد كنت سحابة خاقَّة حتى أطير معك
أو موجة تلهث تحت صولتك وتشاركك
في دوافع سطوتك وقوتك على أنها دونك
في الحرية والانطلاق أيتها المنطلقة فوق كل القيود — لوقد
كنت كما في صباي واستطعت أن أرافق طوافك في آفاق السماء
وكما حينئذ عندما كان أن سبق سرعتك الجوية
أمرأ غير متصور في خيالي ، ما كنت إذن لأجتهد
كما أفعل الآن بالتضرع بالصلوات إليك في ساعة احتياجي الماسة
أناديك ارفعيني كموجة كورقة كسحابة
أقع فوق أشواك الحياة . دمي يسيل

بلغني أن المستر اريك فورد هارت ، أستاذنا في الانجليزية لما كنا في المدارس العليا [[التي هي جامعة الخرطوم الآن]] — توفي منذ عامين أو نحو ذلك . كان من فضلاء أهل الكتاب ، مخلصا في التدريس . غير أنه — ودرسنا كلمة شيلي هذه — كان يأخذ عليه أن أمانيه هذه هواء .

لعل بعض هذا من تأثيره جعل كلمته في القُبَّرة أحب إلي دهرا . والقبرة يوزن السكرة [واحدة السكر الذي نضعه في الشاي] والجمع قنابر لأنهم يقولون أيضا قنبرة بوزن قنفذة . وفي القبرة يقول طرفة صاحب المعلقة :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقري
لا بد يوما أن تُصادي فاصبري

قالوا قال هذه الأشطار وهو صبي وقد وضع شركاً لصيد القنابر فلم يصد شيئا . وقوله فاصبرى كأنه تهديد ، مثل ما نقول نحن في عاميتنا : اصبر يا فلان تهديدا له . وكان طرفة حاد العاطفة شديد

انفعال الوجدان . وعلى إنكار الدكتور طه حسين رحمه الله لأشعار ربيعة وكثير من قديم الشعر، لم يستطع إلا أن يثبت لطرفة قوله :

ولولا ثلاث هن من عشية الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوّدى

وقد هجا طرفة عمرو بن هند وقابوس أخاه ، وكان عمرو بن هند طاغية جبارا . قال :

لعمرك إن قابوسَ بن هِنْدٍ ليخلطُ ملْكَهُ نَوْكٌ كثير
لنا يَوْمٌ وللكِرْوان يوم تطير البائسات ولا نطير

الكِرْوان بكسر الكاف وسكون الراء جمع الكرَوَان بفتح الكاف والراء وذلك أن قابوس بن هند كان مغرما بصيد الكروان فطرفة يقول هو يصطادنا يوما و يصطاد جماعة الكروان يوما آخر وهي البائسات خيرٌ منا ، تطير ولا نطير، والبائسات منصوبة على الترحم وفاعل تطير ضمير مستتر يعود على الكروان وعلامة نصب جمع المؤنث السالم الكسرة كما لا يخفى والنَّوْكُ الحماقة والطيش .

وخبر مقتل طرفة معروف . وكأنه قد نظر بعينٍ من وراء الغيب إلى مصرع نفسه حين قال :

لا بد يوما أن تصادى فاصبري

فهو قد كان القبرة المتصوب لها الشرك .

والشيء بالشيء يذكر وهذه مناسبة ذكريات . زعموا ان أحمد باشا وَدْ أبْ سِنّ الشكريّ رأى صبيا قد نصب شركا للطير وهو يدق صدره ، فقال :

يا الْ بِتْدُقّ في سديرك (تصغير صدرك)
وتشرك لي طيرك
من خلاّني قد يرك (تصغير قدرك أي في سِنّكَ)
يا ب همّاً فوق غيرك

ومثل هذا الشعر لا يخلو من طرافة لمكان قائله إذ كان في قبيلته رئيسا وكان مدير الخرطوم في عهد التركية السابقة ــ وهذا وجه من الوجوه التي من أجلها قد يروى الشعر في بعض ما عدده ابن قتيبة في مقدمة شعرائه ، وهي جمة الفوائد غزيرة المعاني .

شعر الحاردلوــ وذكْرُ أحمد باشا وداب سن ممّا يَجُرُّ إليه ــ تغلب عليه البادرة الذهنية وفي «المُشدار» المنسوب إليه بعض الصنعة . (١) أحسب أجود الأشعار في لغتنا العامية استأثرت بها الوجدانيات الدينية والأغاني الشعبية الخالصة وما يجرى مجراها او ما هو من جوها .

ذكر الشيخ حامد العربي رحمه الله في بعض ما حدثنا به من الأخبار المليحة أن شاعرنا المحسن حقا محمد سعيد العباسي رحمة الله عليه كان قد سمع مرة بعض أغاني الطحين ، من نحو :

يا ب لوناً تمرى (أي يا ذا اللون المشبه التمر)
و يا ب حديثاً ...

---

(١) المشدار هو شعر عامي يصف صدور الغزلان من مواردها الى مراعيها .

لا أحسب القافية «تمرى» ـــ تدّعنى لفظها . لعلها ياب حديثاً تمرى ـــ نعم هي هكذا :

يا ب لوناً سمْري
و ياب حديثاً تمرى

والتمر في كردفان عزيز ولذلك قالوا :

الغالي تمر السوق
وان قسموه ما بجوق ـــ (أي لا يكفي)

وأحسب هذه أيضا من أغاني الطحين ونحوها :

زُولَنْ سَرَبْ سَرْبه (زول أي انسان)
خلىّ الديار غَرْبَة
ادونى انا شربه
خلونى أقُص دربه

قال رحمه الله فصنع العباسي رحمة الله على حَذْوِ ذلك وبموذجه شعرا فصيحا نحو:

اللون لون الذهب

لي أرب في ذا الـــرشـــا　　　يـــا رب حـــقـــق أربـــي

وشعر العباسي جزل حين ينظمه في البسيط المقطوع الضرب ، نحو:

حيـاك ملّيطُ صَوْب الرائح الغادي　　　وجـادَ واديـك ذا الخـيرات من وادى

ونحو:

بـاتـت تُبـالِـغُ في عَـذْلي وتـفـنـيـدي　　　وتَـقْـتـضِـيـني عُـهُوَد الْخُرَّد الـغـيـد

ونحو:

أرقـت مـن طـول هـم بـات يـعـرونى　　　يـثير من لاعـجـح الـذكـرى و يـشـجـوني

وكـان الـعـباسي رحمه الله جيد نغم الإنشاد ، متأثرا في ذلك كما ينبغي بطريقة إنشاء السمانية غير أنـه له نهجه الذي انفرد به ، وعنه أخذه حامد العربي رحمه الله وتعجبني ميمية العباسي التي ذكر فيها أيامه بمصر:

أحـبَّـتـى هـذِي الـدمـوع　　　بـعـدكـم غـيـثٌ همـى
صـيّـرت عـن كُـرْه قُـرى　　　الـسـودان لي مـخَـيّـمـا
ولي بـمـصـرَ شَـجَـنٌ　　　أجْـري الـدمـوع عـنـدمـا

فــــارقــــتِ مصر ذاكـــرا أرجـــــاءهـــــا والهــــرمــــا
والـــنـــيـــلَ والجـــزيـــرة الـــفـــيـــحـــاء والمـــقـــطـــمـــا
ربـــوع خـــيـــرٍ طـــالمـــا أسْــدَت إلــيَّ أنـــعـــمـــا
مصر وأيـــامُ الـــشـــبـــاب الـــغـــضّ مـــن لي بـــهـــمـــا

قوله أجرى الدموع عَنْدما بفتح العين أي أجراها دما لشدة حزنه واستمرار بكائه حتى لم يبق دمع فخالطه الدم، والعندم نباتٌ سام ذو صبغ أحمر شبه به دمعه الذي صار دما. وعندي أنه لو أنشد منشد هذا البيت بكسر العين وركب بالقافية ما يسميه العروضيون التضمين لكان المعنى حسنا مستقيما.

من زعم أن الجزالة بنت البداوة ضربة لازم رددنا عليه بأن العباسي ابن النيل ونشأ في دار دِين وحضارة وعلم وقضى في زمن الشباب ما قضى حين كان بالحربية بمصر. وبأن البارودي، ونَهْجُ الجزالةِ له طريقٌ مَهْيَعٌ، كان من سادات مصر نَفْساً وأباً وأجدادا، ومصر موغلة في الحضارة.

ومن زعم أن الجزالة بنت العلم والثقافة، رددنا عليه بأن ذلك وحده، فيها، لا يكفي، وقد كان الخليل والأصمعي وابن دريد من جلة العلماء، بل قلّ في علم العربية من يداني الخليل — ومع ذلك لم يُعَدّ الخليل ولا الاصمعي ولا ابن دريد من كبار الشعراء.

ومن زعم أن الجزالة بنت الحرب والضرب وأوّل على ذلك ما تجده من جزالة البارودي ذكرنا له أن حافظا كان ضابطا حربيا وأسلوبه حضاري صحفي وأكثر النقاد يقدمون ديباجة شوقي — وكان أبعد شيء عن الحرب — على ديباجته. وكان أبو دلف العجلي قائدا من رجالات الدولة العباسية فارسا شاعرا عربيا صميما، والبحتري وأبو تمام كلاهما كان أجزل منه وأقوى أسلوبا بلا ريب.

الجزالة مما يُدْرَكُ ولا يحصره التعريف على النحو الذي يرتضيه أصحاب علم المنطق.

بعض الجزالة من العلم والدُّرْبة والفصاحة، وسائرها إيقاعي روحاني وجداني معادنه الملكة وهو هبة من الله.

كُثيِّر عَزَّة جَزْلُ الشعر عَدَّهُ ابْنُ سَلاَّم من الفحول، وكان من أهل مكة وعمر بن أبي ربيعة فصيح جزل الشعر ولاسيما رائيته:

أمِـن آل نـعـم أنـت غـادٍ فـبـكـر عــداة غــد أم رائــح فــمــهــجّــر

وكان من أهل مكة:

وكان مالك بن اسماء الفزاري من سادة العرب بدويا محضا. ومع ذلك كان أسلوبه الشعري أدنى الى لين الحضارة من كثير وعمر كليهما وهو القائل:

وحـــديـــثٍ ألَـــذه هُـــوَ ممـــا تَـشْـتَـهـيـه الـنُّـفـوسُ يُـوزَنُ وزنـا
مـــنـطـقٌ صـــائـــب وتـلْـحَـنُ أحـيـانـاً وخَـيْـرُ الحـديـث مـا كـان لـحَـنـا

زعموا أن اللحن هنا معناها الرمز. ويروون أن هنداً أخت مالك هذا وكانت تحت الحجاج بن يوسف أمير العراق لحنت في بعض الحديث ذات مرة، فعابها الحجاج بذلك، فأنشدت شعر أخيها فخَطَّأها وقال لها إن معنى اللحن هنا الرمز لا الخطأ. وبهذا الوجه أخذ أبو علي القالي في كتاب

الأمالي ، وأحسب أن أبا عبيد البكري عدّ تأويل اللحن في هذا البيت بمعنى الخطأ من سقطات الجاحظ ، وما أرى إلا أن الوجه هو ما ذهب إليه الجاحظ ، ولا يَقْدَحُ في ذلك ما ورد عن الحجاج إذ لا يخلو من أن يكون تجبّر بذلك على هندٍ يكابرها وكانت لها عليه جسارة لِمَا تَعْلَمُ من منزلتها في قومها ومن منزلتها عنده .

وزعم الدكتور طه حسين رحمه الله أن لغة الأمير عبدالله الفيصل في ديوان شعره المطبوع لبنانية مصرية في حضارة روحها . ولا ريب أن الأمير نجديٌّ من صميم مَعْدِن بداوة العرب .

هذا ومحمد المهدي مجذوب ، رحمه الله ، وأغدق شآبيب غيوث رضوانه على ثراه ، نشأ حضريا قرآنيا من بيت علم وفضل وتخرج من كلية غردون ، وأسلوب الجزالة هو الغالب على منهج شعره ، وكان يترنم عذب الصوت بنغمات الروي ، وبعض ذلك مأخوذ من طريقة مديح الشاذلية المجذوبية ــ إلا أنه كان له نهج تفرد به ، وكان إذا تعرض لملأ من الناس ألقى إلقاء جيدا . ثم صار هذا على مذهب أدائه للشعر أغلب ــ وأحسب اذ ذلك كان لكثرة طارقيه ، وكذلك كانت من قبل دار أبيه وأجداده رحمهم الله أجمعين رحمته الواسعة .

وكانت في الجياد من أشعار توفيق صالح جبريل رحمه الله أنفاس وتر من الجزالة .

أذكر إذ زرناه أنا وطيب الذكر رحمه الله محمد المهدي مجذوب فرأينا وجهه مشرقا بهجا وأنشدنا من شعره وذكر رحمه الله أن ديوانه كان عند الأستاذ حسن نجيلة ، رحمهم الله جميعا ، ليتولى بعض أمر نشره ، ثم مرت بعد ذلك مدة يسيرة أسبوعٌ أو نحوه ، ورأيت رؤيا أفظعتني .

رأيت مصباح رتينة ساطعة .

مر حين من الدهر والرتائن أسطع ضروب الضوء في بلادنا . و يا للأسف أبْطَلَتْ شُعْلَة القَنا التي كان يستضاء بها في سيرات الأعراس وتتغنى النساء :

الليله سار متّنا
وعلبو له القنا ــ (أي اوقدوا له شعلات القنا)

ثم انشق جانب من شعلة «الرتينة» فداخلتها حمرة استدارت بقوس داخل بياض ضوئها وجعل ضوؤها يخبو شيئا فشيئا بعنقها المكسور.

قصصت رؤياي على مهدي رحمه الله وقلت له هذا توفيق لنذهب إليه نَعُودُه ... وإذا به وقد أظلت وجهه وعينيه كُهْبَةُ اقتراب النهاية ... حَيَّيْنَاهُ وودعناه وعلمنا أن الاستاذ حسنا رحمه الله قد كان عاده قبل قليل ــ ثم ما مضى بعد ذلك إلا يسير حتى توفي رحمه الله ، وخبا ذلك الضوء الساطع .

وقل من لا يعرف أن توفيقا رحمه الله هو القائل :

أيا دامر المجذوب لا أنت قريةٌ ... بداوتها تبدو ولا أنت بَنْدَرُ

والحقيقية أن البندر قد كان بربر في التركية السابقة كانت عاصمة المديرية وفيها معمل النيلة ولها سور ــ وقضى محمود سامي باشا البارودي فيها أيا ما من صباه بلا ريب إذ كان أبوه مديرا وما توفي إلا وهو ابن ثمان أو تسع ولا يؤرخ مؤرخوه لهذه الفترة من حياته ــ وهي فترة الخلوة (١) والقرءان والأساس الديني واللغوي .

هل الروحانيات التي أودعت نفس الجزالة في شعر الصوفية العامي :

ليْلَى هُوىْ يَتْتُرْ في الْفُ ودَا (أي في ألفه أي مسبحة عبادته الألفية)
ما يَبْغ الدنيا المقدودة
سَلطيْتَك دايماً محدودة (السلطية الحربة)
على الدركانْ فرسَك مَشدْوده

وفي شعر ابراهيم التليب والعباسي والتجاني ومحمد المهدي والناصر قريب الله من بعد — هل أنفاس قوية من هذه الروحانيات نفثت في ملكه البارودي الناشيء، ثم تعهدها بعد ذلك أدب الفروسية وعلم العربية والثقافة والنهضة التي كانت على أيدي جيل رفاعة الطهطاوي وأمثال المرصفي وابن التلاميد الشنقيطي.؟

أنفاس الجزالة الصوفية مع حلاوة الغناء الشعبي مما هذب أسلوب ود الفراش مثلا — تأمل قوله :

يا باعشوم الكَرّبة

الباعشوم ابن آوى هذه كنية له كما يقال للثعلب الباحصين وأراد الشاعر بعيره.

يا باعشوم الكَرّبة
يال بِتخلْف القَرّبة
بنت الناس الغربه
ريقها يداوي الجرّبه

فهذا فيه من صفاء الديباجة غير قليل ودانٍ جدا من أنفاس الجزالة التي في جياد العامية.
قـــوله :

ياباعشوم الكفته

لا بأس به ولكنه دون ما تقدم ذكره وسائر الأشطار بعد :

تتلفتْ شِنْ شُفْت
انا سيدك ما خفت
شفت الموت ما تبت

في هذا الشطر الأخير شيء من نفس البتدر
كما في قول الحردلو:

وانت ان كان كبر جَتبَنْ تقلب البيعه

---

(١) الخلوة هي كتاب القرءان عندنا في السودان.

شيء من نفس البندر. غير أن الحردلو من صميم البداوة. لعل شأنه في هذا قريب من شأن مالك بن اسماء. أما ود الفراش فقد كان مولدا أبوه مصري صريح. مع هذا لغة ود الفراش حتى حين تتبندر لا تتمصر، ولا يخفى أن سبب ذلك النشأة وفي العامية المصرية نظم حسن وديباجات صافيات. ولكن مصر متحضرة حتى في بداوة ريفها. وانما هو جنات تجرى تحتها الأنهار. هذا الذي خلب فؤاد العباسي فقال:

للـــــه محـــــبـــــوب رأى   حـــبـــة قـــلـــبـــي فـــرمـــى
أعِـــيـــذُهُ مـــن جـــائـــر   حـــكـــمْـــتـــه فـــاحـــتـــكـــمـــا
مـــررت بـــالحـــي ضـــحـــى   أروض مُـــــهْـــــراً أدهـــــمـــــا
مـــرتـــديـــا مـــن الـــشـــبـــاب   ضـــافـــيـــا مـــنـــمـــنـــمـــا
لـــقـــيـــتـــه في أربـــع   بـــيـــض كـــأمـــثـــال الـــدُّمـــى
شـــابـــهـــن أزهـــار الـــربـــيـــع   وحـــكـــين الأنـــجـــمـــا
أو الجـــمـــان نـــظـــمـــوا   فـــريـــده فـــانـــتـــظـــمـــا

هذا بمصر بلا ريب ــ ورب آخذ على العباسي قوله:

صيّرت عن كره قرى السودان لى مخيما

ولا آخذه عليه فإن قلب الشعر كما وصفه أبو الطيب ــ وهذا من آيات الصدق والصفاء. الإشارة إلى قوله:

وبـي مـا يـذود الـشـعـر عـنـيّ أقـلـه   ولـكـن قـلـبي يا ابـنـة الـقـوْم قُـلّـب

وهذا الذي تيّم على البعد شاعرنا التيجاني فقال في توتي:

يـــا أخـــت مصر وتـــفـــديـــك   فـــي المـــكـــاره مـــصـــر

وقال في النيل:

أنـت يـا نـيـل يا سليل الفراديس   نـبـيـل مـوفـق في انـسـيـابـك

وهو في هذه القصيدة، مع معرفته نيل بلاده وحبه له، شديد الشعور بتأريخه وأنه نيل مصر.

و يرعى الله عهد الأخ العلامة الدكتور تمام حسان ذكر لي مرة بعض أشعار قومه بالصعيد ــ من ذلك قول أحدهم لآخر كان يخاصمه ويحاربه:

يا لله روح سنار ازرع وقوّت عيالكْ

وسنار اسم بلادنا. ولذلك يعرف رواقنا في الأزهر برواق السنارية. وَوَدِدت أن لو صرنا اليه فليس بشيء عسير أن نقول مثلا:

«جمهورية سنار الديمقراطية». والسودان اسمه فرضه عليه أولاً الاستعمار ثم جهود التحرر من

الاستعمار لأن الناس كان يقال لهم في دواوين الحكومة : جعلي ، دنقلاوى ، محسى ، شكرى ، بطحاني ، بشارى ، هدندوى ، حلنقى ، كاهلى ، مستوطن وهكذا وهكذا فرأى الناس أن «سوداني» ان قالوا «سوداني» جامعة ، وسنارى ربما أعطت معنى قبليا آنذاك — أما الآن فلا — فلنعد إليها : هذا :

وفي كتاب عشرة أيام في السودان لهيكل باشا الكاتب الكبير رحمه الله نوع من الحساسية إزاء اسم سنار. وأشار الى نوع من هذا المعنى عندما أخذ على الانجليز تغييرهم اسم خزان مكوار إلى خزان سنار. وسنار كما لا يخفى أعرف وأشهر وأهم.

هذا ومما علق بالذاكرة مما أنشده الدكتور تمام حسان حفظه الله قول الآخر :

هياك يا باب هياك

هياك أي إياك وكان اعداؤه هدموا داره وانتهبوا بابا له كان ذا قدر عظيم في نفسه :

هياك يا باب هيّاكْ
بس ضبتك كسرّوها
خمسين أوضه بشباكْ
فيشان خاطرك كسروها

أحسب أنه أنشد فيها «فيشان» ولعله أنشد فيها «عَلْشَانْ» هذا موضع شك وأرجح الوجه الأول والثاني أشبه بلهجة القاهرة والأول لعله لهجة الصعيد وهو بلا شك لهجتنا. وحضارة الأشطار المتقدمة لا تخفى. لم تكن قرانا تعرف الشبابيك ولكن الطاقات والقطيع والمعلاق والمرقون والرَّوْشَن والتّفاج والسَّام. جاء في «نافذة القطار» أن السام هو التفاج وهذا سهو ونبه عليه والدنا الشيخ جلال رحمه الله وأسكنه فسيح جناته وأنشد :

شتيل المشرف ال علوا له سامه

وأحسب هذا من نظم الشايقية. وفي الشايقية شعر باللغة العامية حلو كثير، والى الرقة أميل. ذكر لي الأخ الحبيب الراحل مندور المهدي رحمه الله وجعل الفردوس مأواه ان قوما من الشايقية ترحلوا في إحدى السنوات العجاف، فقال فيهم بعض من أقام ولم يرحل :

التمرشال قدع الجريد
واشقاوة الشال الصعيد

تأمل الجناس — شال بمعنى حمل وشال بمعنى ذهب الى الصعيد أي بلاد نواحي مدني وسنار والكوة وبحر أبيض وهلم جرا.

فأجاب بعض من رحلوا قال :

قمنا بالفراخ والسلاح
وقمنا بالشيخ ال في المراح

الفراخ بتشديد الراء جمع فرخ بفتح فكسر في الدارجة والشبح أي الفرس أرى أنه الذي شبح أي مد خطواته لا الشبح واحد الأشباح الذي يرد في بعض قصص أهل العصر.

ومن أجود الشعر الشعبي الغنائي المحض «الجابودى» وأصله عربي ، قال عنترة :

أنا الهجين عنتره
كل امرىء يحمى حره
أسوده وأحمره
والشعرات الواردات مشفره

وقد أفحش عنترة في هذه الأبيات ، ولكنه ما الى الفحش أراد ولكن الى الوضوح والدفاع عن نفسه وقبول التحدى ، وقوله أنا الهجين ، أي أمي أمه ، فمَهْ ؟. أنا أدافع عن شرف أمّيَ. والقارىء الكريم يعرف قوله يصفها :

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعر منها مثل حب الفلفل

وقد يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعجبه قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وأنه ودّ لو كان رآه من بين أهل الجاهلية إن صح هذا الخبر فإنه يكون أبو العلاء المعرى قد أخطأ حيث أدخل أبا الفوارس في جهنمه في رسالة الغفران ، إذ مثل هذا المعنى من جانب سيد ولد آدم ، عليه الصلاة والسلام ، يوجب الجنة إن شاء الله تعالى .

من الجابودى :

الصَّنْدل ال دقّنّه
فوق الرّبِعْ تحَتّنّه
يا مجّر بين فُرّق الحبيب كيفنّه
يا الشُّرّتي ابْ جِبّاكَهْ
يا ال فوقه الناسْ تِبّاكي
ان جانا الموت ما يكفنوني براكا

ومما سمعناه من هزليات «الجابودى« — قول الآخر :

جيت بي في الليل مَقَلّقْ
لقيت عشاى معلقْ
ملاح بر بور من الأ يدين يزّلق

وملاح البر بور من لوبيا العفن (١) — ومثل هذا النوع الهزلي إنما يعمد به الى محض الإضحاك ،

---

(١) و يطلق عند الشايقية تلى مديد القمر

من جهة معناه ، ومن جهة ما فيه من محاكاة غنائية «الجابودى» — ولا يقصد فيه الى تجويد لفظ او حاق رنة جزالة .

ومن هذا الضرب الهزلى مما حاكوا فيه «الدوبيت» البدوي وما يجرى مجراه من الأشعار قول الآخر :

اتمنيت من ربي ان حلّقْ (١)
والتانية بقيت اعور يمين شلّقْ
والتالتة أخدْ بنت الحلال طلّقْ
والرابعة قد ام بيت خادم اتفلّق

وهذا الهازل لا أحسبه خلا من بعض القصد الى هجاء إنسان بعينه من طريق التعريض به ، والتمنى الذي جاء به مجرد غطاء . وتاء المتكلم مقدرة في حلّق شلّقْ طلّقْ إلخ .. والأشطار التي في أول هذه الكلمة تحاكى وزن «الجابودي» و«الجابودي» مما يحرّك حنين القلب وسمعناه في دار أهلنا الجعليين وأصله «حسّانى» ومن شاء حذا عليه ، بالفصيحة او الدارجة فإنه عميق بالغ الحلاوة :

بحر الدميره زايد
قالوا الحبيّب راقد
راقد مرضان وانا عندي ليه قصايد
غنى لي يا ربابه
فريْع البان حبابه
هوىْ يا فقير قوم علّب التُّقّابه (علّب أي أوقد والتُّقّابة نار القراءة)
توب الزّراقْ مو غالى (أي ليس غاليا وتوب الزراق منزلى مصبوغ بالزرقة والنيلة)
وحديث خشيكم حالي
حبيب قساىْ بالريده شاغل بالي
قالت لي بيخشيما (أي بفمها . خشيم تصغير خَشُمْ أي فم)
ريدتك معانا ديما
حبيب قساى فيك نفسي ما بلُوما (أي لا ألومها)
هُوىْ يا هبّابه هبّى
والشاي داحلّ كبى (حلّ أي استوى وصار أحمر)
ودّ العربْ ريحانة قاعدةْ جنبي
شاى الظراف عَبُّوهْ
جابو البنور صبوه (البنور أكواب بلورية أو جيدة الزجاج)
مجنون الريد براك ما بطبوه (الريد ، المحبة)

حلّق أي حلقت أي ظهرت حلقات الزهرى على جلدى . شلقت رفعت رأسي عند النظر . طلق : طلقت

كم يعجبني «الجابودي» .

براك أي بدونك ــ أي بلاك والراء واللام جارتان ومعهن النون في الحروف الذولقية . وقرأت لأحدهم ينكر على قومنا قولهم براك براى براتا ، فهذا أصل ذلك ، وغير مما تستعمل لتفيد معنى لا غير وفقط . قاعد براى أي بنفسى فقط ــ أي لا يوجد غيري أنا .

الفصيحة لغة الإسلام . وتحتاج اليها الأمة العربية لتكون لغة التفاهم المشترك بينها . ولكن ليس معنى هذا أن نعتدى على حرمتها باسم التحديث ، فتدخل عليها التعابير الركيكه والأساليب التي تريد أن تنتسب الى حضارة الإفرنج من دون عروق ذات عمق فيها بمجرد المحاكاة القردية . علينا أن نحترم أصولها ونأخذها من هناك .

العامية في كل بلد عربي لغته . وعاميتنا نحن قريبة النسب والروح من الفصيحة .

وفي الناس الحسد كثير . فعلينا ان نحترس من أن يفسد بعضهم علينا سلامة لهجتنا العامية باسم العصريّة والتحديث . ورحم الله الشيخ الطيب السراج . فقد كان يعمد الى أرصن ما يقدر عليه من الأساليب و يوشعه بالمحسنات التي إنما يستطيعها المتمكن في لغة الضاد نحو قوله :

ماذا تنُوطُ بثوبي أيها الشاني   ليس الذي نُطت يا لا شيء من شاني

ونحو ميميته التى أولها :

حسرت فأحسرت العقول لثامها

وداليته : قالوا أعيدوا مجدكم تجديدا

فزعم فيها أن التجديد هو بعث رصانة العربية المتين وأن ذلك لا يبغيه ولا يستطيعه الرّكاك والضّعاف وعبيد الاستعمار :

وهناك أبناء اللكيعة بَصْبَصَتْ   أذ نابها وترى العبيد عبيدا

مع هذا كان ينظم العامية ويحرص على أن يكون رصينا فيها ثم قد يزين ذلك بمحسنات البديع . وسمعت منه كلمة قافيتها «عارضة» وذكر فيها «الشَلخ» الذي فوق «المطارقْ عارضُه» .

وأحسب أن لهُ هذه الكلمة التي أولها :

جَدْيَ الْعَزازُ الرقبة قَزَازْ   يا عُزَازْ أنا نومي خَزَازْ

العزاز الأولى بفتح العين أي الخلاء والصحراء والثانية بضمها جمع العزيز من الناس .

والذي أعجب الشيخ الطيب السراج رحمه الله في العامية ما قد يتأتى فيها وما قد احتفظت به من روح الجزالة . وذلك يمكن أن تستمد من أنفاسه ما تستعين به أنفاس جزالة اللغة الفصيحة ، على النحو الذي كان يمدُّ به الرجاز أنفاس جزالةِ العصر الأموي ، وأنفاس مراضع الْبَدْوِ جزالة العصر الجاهلي .

وقد فطن بعض الفضلاء المصريين في أوائل أيام الحكم العثماني لجزالة لسان أولاد البلد ، العامي عندنا ، فصنع محمد الجابري رحمه الله كتابه «في شأن الله» ، يؤرخ به للمهدية وبعض الزمان الذي تقدمها ، وضمنه غير قليل من الشعر العامي المتين . وصنع مأمور كان بالقطينة مسرحية اسمها «نكتوت» كان يرمي من ورائها إلى مسائل تتعلق بتثبيت الأمن ومنع الشغب الذي تثيره العصبيات

القبلية في أماكن اللهو. وضمنها أشعاراً عامية غاية في الرصانة. فليت شعرى هل نسخة من هذين السفرين النفيسين موجودة في مكتبة جامعة الخرطوم ؟ــ ما أجدر أن يعاد طبعهما مع الدرس الوافي والتقديم. كانت لديّ من «نكتوت» نسخة أهداها إلي الأستاذ المبارك إبراهيم رحمه العزيز الرحيم، ثم طارت بها عنقاء مغرب. وأحسب أنه قد كانت لدي نسخة مهداة من قبل فطارت بها أيضا من قبل عنقاء مغرب.

العنقاء طائر خرافي أيها القارىء الكريم كان يخطف الأطفال ويتجه بهم نحو الغرب، فقالوا عنقاء مغرب ــ هل هذا كناية عن السفن التي أشرعتُها كالأجنحة وكانت يخطف أصحابها أطفال الناس ويبيعونهم في روما ليكونوا عبيدا أو في قرطاجنة لتوقد بهم نيران معابد مولوخ ؟.

كانت عصامية الشيخ الطيب السراج قُدْوَةً حبّبت الإقبالَ على درس العربية إلى كثير من أبناء جيلنا. وكان الشيخ الطيب السراج بارعَ فنون الحديث وعباراته، مع استحضار لأخبار قدماء الشعراء والفرسان والعلماء كأنما هو معهم يبصرهم ويحاورهم وترى أنت معه أشخاصهم وحوارهم وحركاتهم. وكان أول لقاء لقيته مع أستاذنا الهادي «أبو بكر» حفظه الله. ثم مع صديقنا العلامة الشاعر محمد عبد القادر كرف.

ومحمد أحمد محجوب رحمه الله كان قدوة الجيل غير منازع.

كتب ينقد ويحلل شعراً لميمان رحمهما الله في جريدة صوت السودان. وانبرى له شاب حدث ثِملٌ بغرور الشباب كأشد ما يمكن الثمل به، فَفَنّد نقده وتحليله في نفس الجريدة ونشرت الكلمة بإمضاء مستعار ــ ابن جلا ــ كأن الحدث المغرور توهم نفسه الحجاج بن يوسف، وقال لقلمه المتطلع وهو يهاجم المحجوب، يا سيّاف اضربا عنقه. قالوا كان الحجاج يلحق الفعل ألفا على مذهب من زعم أن الألف في:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

ليست للتثنية ولكن نون خفيفة ووقف على نية الوصل.

قالوا فغضب محجوب وسأل رئيس التحرير وكان الاستاذ محمد عشرى الصديق رحمه الله من رواد الأدب في نهضة بلادنا، عن الكاتب، فالتزم الأستاذ محمد عشرى بحق الصحافة في الكتمان.

لقد كان محجوب رحمه الله خطيبا مُفَوَّها وأديبا شاعرا ناثرا ناقدا وقانونيا محاميا وقاضيا نهض بهذه المهنة ومهد سبيلها تمهيدا لأ بناء وطنه، فتدرب على يديه منهم جماعة. من أبرزهم الأخ الاستاذ محمد ابراهيم خليل عميد القانون سابقا في كلتا جامعتي الخرطوم في بلدنا وأحمد بلو بزاريا في نيجيريا، ثم كان وزير للخارجة كما قد كان محجوب من قبل والأستاذ جمال محمد احمد حفظه الله من بعد.

لقد كان محجوب من قادة الفكر، وسياستها محنكا شارك في جهاد الوطن ورفع راية الاستقلال سنة ١٩٥٦م وفي صنع مؤتمر القمة العربية سنة ١٩٦٧م الذي أصلح بين ملك العرب فيصل وزعيم العرب عبدالناصر رحمهما الله ــ كان نجم ذلك المؤتمر المتألق.

وقد كان قبل القانون مهندسا. فهذا مما زاد في سعة آفاق فكره. وكان رحمه الله سَيّداً مُوَطّأ الأكناف. وكان يكرم أهل الادب ويرتاح لصحبتهم ويقبل شفاعتهم ويشفع فيهم إذا لزم ذلك.

وقد شفع في شيخ الأدب محمود محمد شاكر أطال الله بقاءه عند جمال عبدالناصر، وخبر ذلك معروف. وتلك لعمرى مأثرة.

كان ابن جلا صاحب الغارة بالكنية المستعارة بعدما تقدمت به السن شيئا وأشرعت إليه أسنة الناقدين والحاقدين والمتطلعين يقول لنفسه: يا هذا كما تدين تدان. وقد عرف للمحجوب فضله وكما له وَنُبلَهُ. وكان لما وجد اسمه بين المتنافسين لمقاعد الخريجين سنة ١٩٥٣م في أيام التمهيد للحكم الذاتي والاستقلال، لم يصوت من بين تلك الأسماء إلا لاثنين — فينبغي أن يكون صوته مما أعان على فوزهما — هما محمد أحمد محجوب، أعطاه صوته بدافع التقدير والإعجاب وحسن الطاهر زروق أعطاه صوته بدافع المودة والزمالة القديمة. قاتل الله السياسة. على أهميتها قد ذهبت بدنيا الأدب أو كادت كانت لنا جمعية أدبية في نادي الخريجين في النصف الأول من سنوات الأربعين ترأسها الأستاذ عبدالله عشرى الصديق حفظه الله حينا ونشطت نشاطا ظاهرا. احتفلت بمقدم الأستاذ المصري السباعي بيومي مع من احتفلوا من اسرة نادي الخريجين شيخ الأندية واقامت عدة محاضرات.

أذكر مشاركة لى بترجمة لقصيدة ملتون ليسداس — واذ بدا لى أن ملتون شديد الشبه بالمعرى، لعماه ولفقهه في علوم لغاته الكلاسيكية والمعاصرة، حذوت حذوا شديدا على مذهب أبي العلاء في سقطه. وكان أحمد رحمه الله — الدكتور أحمد الطيب — يعجبه من تلك الترجمة:

أحُوَرَ الأوَاذِي أيْن كُنتُنّ إذ طوى ... زَمانَ النوى ربّ الهوى في المجاهل

هذا حذو على نحو قول أبي العلاء:

صَحِبْتِ الملا حتى تَعلمت بالْقَلا ... رُنُوَّ الطَّلا أو صنعة الأل بالخدع

ثم لم تثبت جمعيتنا اذ هبت عاصفة الاتجاه نحو السياسة إلا قليلا — تنوسيت ونسيناها إذ كان الداعي الى تنظيم صفوف السياسة الوطنية قبيل وبعيد نهاية الحرب الثانية شديدا. كانت المذكرة سنة ١٩٤٢ وقام حزب الأشقاء سنة ١٩٤٣م — وأحسب أنه قام حزب الاتحاديين في آخر أو في اول سنة ١٩٤٤ وكانت أولى جلساته في دار الأستاذ بشير محمد سعيد حفظه الله تعالى. وكنا كثيرا ما ننزل عنده جزاه الله خيرا. ولكنا لم نشارك في ذلك.

والتمس بعض الفضلاء من أحمد رحمه الله ومن كاتب هذه الأسطر أن يتولى تحرير جريدة الأمة. وكان حزب الأمة قد أنشىء سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ آخر تلك أو أول هذه — فاعتذرنا. كأنّا كنا أحرص على التدريس وعلى الأدب. ولقد انتقل صاحب ثورة الزنج في القرن الثالث الهجري من التدريس والأدب الى السياسة. وروى له أبو العلاء في رسالة الغفران خبرا، قال فيه: «وتلك الأبيات المنسوبة اليه مشهورة وهي:

أيا حِرْفة الزَمْنَى ألم بك الردى ... أما لى خلاص منك والشمل جامع

لئن قنعت نفسي بتعليم صبية ... يد الدهر إني بالمذلة قانع

وهل يرضين حر بتعليم صبية ... وقد ظن أن الرزق في الأرض واسع»

انتهى — فقد طلب صاحب الزنج الرزق الواسع في السياسة كما ترى ، وتركنا وترك ابن الرومي وأضرابه يتغنون غناء المأساة .

وقد تولى تحرير جريدة الأمة أخونا الاستاذ عبدالرحيم نضر الله ثراه وجعل الجنة مثواه ثم المهندس الضابط الشاعر المحسن يوسف مصطفى التنى رحمه الله ، وما جاءه ميراث الصحافة ولا ميراث الشعر عن كلالة .

وعلى ذكر صوت السودان فقد كانت منبرا لمساجلة من ضَرْب أسلوب النقائض — مع حلاوة كثيرة ومفاكهة — بين الشاعرين عبدالله حسن كردى وصالح عبدالقادر رحمهما الله . وكانت لنا — محمد المهدي مجذوب رحمه الله وكاتب هذه الأسطر — صلة قوية بالأخ العزيز منير ووالده والكردي رحمهما الله . وأحسب أن أشد تلك المساجلات كانت ايام تولي الأستاذ جلال الدين عبدالمجيد تحرير الصوت وكان الأستاذ الهادي العمرابي في ذلك العهد حيا يرزق وفي هيئة تحرير الصوت رحمه الله . فكان الكردي ربما شكا تحيزا منه إلى جانب صالح . رحمهم الله برحمته الواسعة وشملنا جميعا بتجاوزه عن سيئاتنا وغفرانه . كان ذلك في أوائل سنوات الأربعين .

وحديث الأدب يطول ...

حسبك شاهداً مكتبة الأستاذ حسن بدري رحمه الله — فقد كانت مجمعا لأدباء الكتيبة وأشعارهم مما تفعم به دواوين — هذا ما تداولوه بينهم في المساجلات وأهاجي المفاكهات فقط . وقد طبع منهم الأستاذ النور ابراهيم رحمه الله ديوانه ، والأستاذ محمد المهدي مجذوب ، وأحسب أنه كان منهم الاستاذ إمام دوليب رحمه الله والأستاذ محمد محمد علي رحمهم الله أجمعين — ومنهم الأستاذ كرف أطال الله بقاءه ، وما زلت مدينا له بجواب كلمته المرنة ، على أنها ليست مما نظمه في شعر الكتيبة :

عطفتُ فلم أَلْوِ عَنكَ الأعنة وكم لي من حسنة بعد حنة

وليس هذا موضع إيرادها فموضعه مع جوابها إن شاء الله ، غير أنه لا بد من التنبيه إلى نحو هذا من أنفاس جزالة الأستاذ كرف :

تولَّتْ سنين الصبا الوارفات ولم تبق إلا العجاف المُسِنَّة
فليتيَ في النَّغف نَغْف الرباب أُعَيِّرُ وحَوْلي الطبول المرنَّة
فذرنيَ والمقرفين الغواة أولي الضِّغْنِ والعَتكات المُصِنَّة
عسى الله يحسر من كيدهم ويرمي أنوف العِبدّى الأقِنَّة
فإنهم مذ أصابوا الحياة خساس النفوس ومذهم أجنَّة
وإنهم قَذَر لو دنت أكفّهمُ من طعام تسنَّة

والقصيدة على هذا الروي المبنيء عن تمكن وفحولة حقة مع علم بالعربية وقوة ملكة لا تخفى .

وحديث الصحافة كأنه — أم ليس كذلك — من حيث الأدب ذو قرابة ما . وعندي من بعض حديث الصحافة ، قليل منه . إذ لم أكن منها في الكثير الغالب إلا على هامش لمداناتها عرين السياسة وهو مما أتهيبه وعسى أن يكون يتهيبني فإن الأمثال عندنا مما تقوله : «القلوب شواهد» وإذا تهيبتك السياسة أو تهيبتها فأنت سعيد .

وأول عهدي بالأستاذ جمال محمد أحمد قرأت له كلمة في مجلة كلية غوردون ، كانت ، أحسب ذلك ، الفائزة في جائزة الإنشاء ، سنة ١٩٣٥ م ــ وكان فيما بلغنا ، إذ كان دخولنا كلية غوردون سنة ١٩٣٦ م ، رئيس الرؤساء ذلك العام . قلّ ، فيما أعلم رئيس للرؤساء في الزمن المقارب لفترتنا بالكلية من قبلنا او بعدنا كان أديبا او اشتغل بالتأليف غير جمال ، وغير الأستاذ الشاعر المحسن محمد علي يوسف ، كان رئيس الرؤساء سنة ١٩٣٨ م . وكان ممن اشتهر بالأسلوب الانشائي الحسن و بجودة الخط . من دفعة الأستاذ جمال ، والشيء بالشيء يذكر ، زميلي في قسم اللغة العربية بالمدارس العليا ورئيس مكتب النشر التابع لوزارة المعارف من بعد الأستاذ أبو القاسم محمد بدري . وكان يكتب في مجلة كلية غوردون ونقرأ له . وله من بعد كتاب الشاعرين المتشابهين ، وازن فيه بين أبي القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير رحمهما الله . والشابي مات رحمه الله أسنّ من التيجاني وأشهر ، والتيجاني كان لعمرى أشعر . وحظ أهل بلادنا في الإعلام العربي مبخوس وذلك لاسم السودان ولسواد الألوان .

كنت أنشد مرة أحد أدباء لبنان أو نحوها أبياتا فائية من الكلمة التي مطلعها :

ما بال دمعك أم كفكفته يكِفُ ... أم أنت لست عن الأشواق تنصرف

وفيها نسيبٌ تَهَلَّل السيد الأديب له وانشرح صدره وطرب للبيتين :

سِبَحْلَةٌ عَبْلَةٌ خَوْد مُبَتَّلة ... بلهاء ُتوشِكُ للمشتاق تقتطف
خفيفة الروح كاسات الشباب بها ... مهيئات ومنها الروح يغترف

ثم جاء البيت :

أذكرتنى من كنوصُبحَ الخريف بها ... يا هذه بل غزالٌ أنت يشترف

فقال كنو أى بنيجريا ، أي سوداء ، و باخت حماسته كلها ــ وجلي أن نفوره عن اللون الأسود ، حتى على التوهم شَغَلَهُ عن تفهم معنى البيت لأن بهجة الحسناء الموصوفة هي المشبهة ببهجة صباح كنو . وليس صباح كنو في الخريف وهو من أجمل معارض الطبيعة [خريف كنو موسم أمطارها وهو صيف في بلاد شمال افريقية] بأسود اللون . ولا الموصوفة هنا بسوداء ضربة لازم . ولكن الأديب العنصري الأعماق اشمأز من ذِكْر كنو ــ كما ترى ــ وشد ما يذكرنى ذلك بخبر جرير إذ زعموا [وأشك كل الشك في صحة الخبر] أنه كان ينشد عينيته الرائعة أحد الخلفاء فطرب لنسيبها كل الطرب ، فلما قال :

وتقول بَوْزَع قد دببت على العصا ... هلاّ هزئت بغيرنا يا بوزع

قالوا باخت حماسته وانكمشت نفسه من اسم بوزع لقبحه فيما ذكروا . وانما بوزع لقب لقب به جرير الفتاة التي هزئت به ، وما كان ذلك من براعته ليغيب عن أمراء أمية وخلفائها فهذا ما يدعونا إلى الشك ، وعلى تقدير صحته فله ما يبرره أكثر من الذي فعل صاحبنا . وقد بلغني أن الأستاذ الشاعر صلاح أحمد إبرهيم ، حفظه الله ، أخذ على بعض أدباء لبنان مثلما أخذته ههنا ، فإن يك قد فعل ، فلقد أصاب ، وأقول كما قال الحريرى في مقدمة المقامات :

فلو قَبْلَ مبكاها بكيْتُ صبابةً ... لسُعْدى شفيت النَّفْس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيَّج لي البكا بُكاها فقُلْت الفضل للمتقدم

والبيتان لعدى بن الرقاع العاملي شاعر بني أمية — وهو القائل وهي من أبيات الكامل :

لولا الحياءُ وأن رأسي قد عسا فيه المشيب لزُرْت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها عَينَيْه أحْوَرُ من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرَنَّقت في عينه سنة وليس بنائم

وكان أستاذنا الشاعر العالم ابن الشاعر العالم الشيخ عبدالله محمد عمر البنا ، أطال الله بقاءه ، كثيرا ما ينشدنا هذه الأبيات واستحسانه لها ظاهر .

يا لك من استطراد — وكان كتاب تكريم الأستاذ جمال لاقترابه من السبعين وإظلالها قد ذُكِر فيه أن يلتزم الكاتب بمجال ما عرف به جمال من أبواب التأليف . وهذا كأنه تحجير للمجال الواسع . إذ قد عمل الأستاذ جمال وشارك في أكثر من ميدان واحد من ميادين الفكر والإنتاج الفكري ، وأقرب عهدي بذلك أنه بدأ ترجمة قطعة شعرية بارعة للشاعر الانجليزي جون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠م) سخر فيها من رجل محب للسلطة ، مجبول على الشره ، اضطره إخفاقه في الحصول على السلطة إلى مسلك شبيه بمسلك السواحر البيض (أو كما تقول الجنيات الطيبات) اللاتي يقبلن على الفعل الحسن بأسلوب شيطاني — وقد استحسن هذه القطعة الدكتور صموبل جونسون في نقده لدرايدن ومما قاله عنه أنه وجد بناء اللغة الانجليزية حجارة خشنة فصيرها من رخام .

فهذا يبرر ما كنا فيه من حديث الشعر والأدب . والاستطراد مذهب جهابذة أدباء العرب .

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

والجاحظ العظيم كان كثير الإستطراد . وأصله من بلادنا . وأشياء كثيرة في بيانه وحيوانه تدل على ذلك .

ومن الجاحظ علمنا أن سيدنا بلالا — من السابقين الأولين وصاحب الأذان رضي الله عنه — كان نوبي الأصل من مواليد مكة .

وفي بلادنا بركة كثيرة . لا أشك أن هجرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبشية إنما كانت الى بلادنا هذه وذلك أمرٌ فصّلته في غير هذا الموضع ، في مقال نوقش في الندوة الثالثة لتأريخ الجزيرة الذي أُقيم بجامعة الملك سعود بالرياض في أكتوبر ١٩٨٣م — جزاهم الله خيرا .

كان من أوائل ما لفتني الى هذا المعنى أنني لما زرت المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام أول مرة ، سألني المزور عن وطني فقلت السودان [كان ذلك في حجة سنة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤م] فقال لي ما بلدتك فقلت الدامر ، فقال لصاحبه اكتب «حَبَش» .

نجاشي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مذكور معه النيل وسفينة يقدر العائم أن يصعد عليها من منجافها أي دفتها هذا في ابن اسحاق . فلا يذكر ابن اسحاق أنه كان بأكسوم ولكن هذا يذكره بعض المتأخرى الزمان من المؤرخين بلا تحقيق . وقد نفذ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بر الشعيبة وهي جنوب جدة بنحو أربعين كيلومترا ، فينبغي أن يكونوا قد صاروا الى ناحية سواكن . وكما قدمت ليس ههنا موضع التفصيل .

هذا وقد جرنا الى هذا الاستطراد ذكر الشابي والتجاني رحمهما الله . وفي مكتب النشر عمل قبل الأخ أبي القاسم محمد بدري حفظه الله جماعة من الفضلاء ، أخص منهم بالذكر أستاذنا عوض ساتي رحمه الله . وكان رئيسا للمكتب وتولى الإشراف على مجلة الصبيان آنئذ وكان يكتب باسم العم سرور .

ومع العمّ سرور عمل الأستاذ جمال والأستاذ بشير— وكانت بداية الأستاذ بشير ، أعني بشير محمد سعيد ، في الصحافة من عندئذ— ثم صار إلى إنشاء الأ يام ودار الأ يام ، ودوره في النهضة بالصحافة في وطننا معروف مشهور وفي الصبيان كان صاحب هذه الأسطر يساهم بالأحاجي— «عرديب ساسو»— «اللعيب والنيتو»— «ظلوت والضبع »(١) حتى صارت الأحاجي عددا وكان التحرج وتعمد القصد الى التعليم يمنع من إيراد جميع ألفاظ لغة الأحاجي— ومنها ما بدا لي كأنه لا يليق من أحاجي ود النمير:

مثل طير طير يا مقص
واقطع لسان « العرص »

وأحسب هذه الصيغة لم تكن معروفة في بلدنا والسجعة غير جيدة والكلمة نابية كما ترى .
ومثـــل :

ود النمير
شوفن خجلته
نسيبته مرته
وحماه ولده
وعروسه بنته

وهذه كأنها صورة معكوسة لعقدة أوديب .
وفي تلك الأ يام نشر مكتب النشر مشرع السدرة [١٩٥١] وهي قطعة من أقصوصة طويلة . وفي سنة ١٩٥٣ ردّ مكتب النشر قصة «نوّار القطن» وهي جزء من نفس الأقصوصة بحجة أنها بالغة السخرية— ذكر لي ذلك طيب الذكر الشيخ ابراهيم عبدالرزاق رحمه الله رحمة واسعة . ذلك كان بعد زمان الأستاذ عوض ساتي رحمه الله .
وشغلنا التدريس .
وكان عمل الأستاذ جمال بمكتب النشر بعد مقدمه من انجلترا— في عودته الأولى منها سنة ١٩٤٦م— ثم صار إلى الجامعة— جامعة الخرطوم فكان المشرف على الطلبة ولم يكن فوق هذا المنصب درجة إلا المدير ونائبه آنئذ . وقد فتحت فترة الدراسة في انجلترا لنا جميعا في مجالات الفكر والقلب والأدب والحياة آفاقا واسعة .

---

(١) هذه عناوين قصص خرافية طبعت فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥١ وتكررت طبعاتها من بعد الى اليوم .

أذكر إذ ترجمنا أحمد رحمه الله وأنا أبيات الأرجوزة :

أما ترى لندن والتيوبا

نظمتها أنا وترجمها أحمد بمشاركة جد يسيرة مني ــ وتلقفها أبناء الدفعة في معهد التربية ــ ضاعت الأرجوزة كلها مع كراسة حمراء حوت ما حوت ، ضاعت هي أيضا . وضاعت الترجمة ، يا للأسف .

ومما قرأنا قصة المحاكمة لكافكا . فكنا نحسب أنها رمز فإذا نجدها هي الواقع ، الواقع الذي هو اللامعقول ــ تلك كانت من مقدماته . ونحن واللامعقول ، نحن الآن جميعا في السلال فلن أطيل عليك طولا يملك أيها القارىء الكريم .

و يعجبني ديوان الحماسة كله . أقرأ معي ــ لا بل أنشد معي ، فإني لا أزال بحمد الله أنشد الشعر وأطرب له ، قول عبيد بن ماوية الطائي :

ألا حيّ ليلى وأطلالها ... ورَمْلَةَ ريّا وأجبالها
وأنعم بما أرسلت بالها ... ونال التحية من نالها

فإني لذو مِرّة مرة :
مرة الأولى مكسورة الميم كما في الآية ذو مرة فاستوى والثانية بضم الميم من المرارة .

فإني لذو مِرَّة مُرَّة ... إذا ركبت حالةٌ حالها
أقدّم بالزجر قبل الوعيد ... لتنهى القبائل جُهّالها
وقافيةٍ مثل حدّ السنان ... تبقى ويذهب من قالها
تجوّدت في مجلس واحد ... قراها وتسعين أمثالها

كم أحمد للإخوان الذين فطنوا لتكريم الأستاذ الأديب المفكر المربي المؤلف السفير الوزير عضو مجمع الخالدين جمال ، حفظه الله ، بهذا السفر وأن أشارك فيه ــ كم يُحْيُون به في نفسي من ذكريات الشباب ــ من أبيات الحماسة :

يا لهف نفسي على الشباب ولم ... أفقد به إذ فقدته أمما

كان محمد المهدي ــ رحمة الله على محمد المهدي ــ كثيرا ما ينشد و يترنم بهذا البيت والأبيات التي معه :
ورحم الله أبا تمام كم في حماسته من روائع .

واقرأ معي ــ لا بل أنشد معي ، فإني لا أزال بحمد الله أنشد الشعر وأطرب له : قول الآخر :

لعمر أبيك لا ينفك منا ... أخو ثِقَةٍ يعاش به متين
مفيد مهلك ولزازُ خصم ... على الميزان ذو زَنَةٍ وزين
يزيد نبالة عن كلّ شيء ... ونافلة وبعضُ القوم دون

وفي أصداء النيل أبيات من هذا الوزن والروي أولها :

مــالــك والجــزالــة في زمــان يحــب بــه مــن الــقــول الهــجين

ذكرها طيب الذكر عميد الأدب الدكتور طه حسين رحمه الله في مقال نشرته الجمهورية ثم ضمنه كتابه من أدبنا المعاصر. فلم يلبث بعضهم أن جعلوا يستشهدون بما كتب كأنهم أول من ظهر عليه.

و يعجبني قول النابغة :

أقــارع عــوف لا أحــاول غــيــرهــا وجــوه قــرود تــبــتــغــي مــن تجــادع

كم في الواقع من أباطيل.

الله نسأل أن ينسأ في آجالنا مع الصحة والعافية والسلامة والسعادة وأن تجد تلاميذ الأستاذ جمال يوافونه بعد عشر سنوات بتكريمه الثمانين و ببطاقة زهر من قصيدة توماس هاردي [ألم تكن في بداية حديثنا هذا كلمة من توماس هاردي] «لم يكن ينتظر الكثير» وقد نظمها لما بلغ الثمانين، قال ما معناه على وجه لتقريب، لا الترجمة، والقارىء الكريم أصلحه الله مما يذكر قول مواطننا القديم أبي عثمان رحمه الله أن ترجمة الشعر لا تستطاع :

أيتها الدنيا لقد وفَيْتِ لي
وفيت لي
وعلى وجه الإجمال قد برهنت
أنك حقا كما قلت عن نفسك
منذ إذ أنا طفل مستلق
عند جانب من المرج أنظر إلى السماء
أقر أنني لم أكن أنتظر
أن تكون الدنيا كلها حلوة
عندئذ كنت تقولين لي، وما زلت
وتكررين ذلك مرات من بعد
بصوتك الغامض الذي تريقينه
من السحاب ومن التلال المحيطة :
كثيرون أحبوني بإفراط مُلِحّ
وكثيرون بهدوء ناعم
بينما آخرون أبدوا لي الاحتقار
إلى أن هووا تحت التراب
انني لا أعد أكثر مما ينبغي
يا ولدي ــ أكثر مما ينبغي
فقط حوادث باهته اللون أو نحو ذلك
هكذا قلت للعقول التي مثل عقلي

ومن جانبي لم يفتني الانتفاع بذلك
و به تمكنت أن أقاوم المشقة والوجع
الذي قد يجيء به كل عام

ههنا مع الفكاهة وصدق العاطفة روح سأم ــ كلنا يذكر قول العبقري القديم العجوز:
سَئِمتُ تَكَالِيفَ الْحَياة وَمَن يَعِشْ ثَمانِينَ حَوْلاً لا أبالك يسأم.

إظهاره السأم ههنا إنما أراد به الزَّجْرَ لأصحاب المتاعب من أمثال حصين بن ضمضم الذين كانوا يريدون استمرار الشغب وإراقة الدماء.

حكمته تدل على حيوية ومشاركة كاملة في التدبير وحل المشكلات ــ ومدحه للسيدين العظيمين كذلك:

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حالٍ من سحيل ومبرم

ونهيه عن الحرب:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

وحثه على الفضائل:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

نسأل الله أن نكون من أهل الفضل وألا يفوتنا معنى الحكمة الذي في هذا البيت.
كل هذا ليس بسأم حقا. ولكن كما قال أبو الطيب:

وإذا الشيخ قال أُفٍ فما ملَّ حياة وإنما الضعف ملاَّ

ومن أحب الشعراء إليَّ عوف بن محلم، فإن نونيته التي أولها أو منها قوله: «إن الثمانين وبلغتها» مفعمة بحب الحياة الزاكي بالتواضع والشكر لله سبحانه وتعالى ــ أذكر أنني درّست أبيات هذه القصيدة التي أوردها ياقوت في إرشاده لتلاميذي سنة ١٩٤٥م فأحبوها ــ هذا من شواهد صدقها وعمق عاطفتها:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبدلتني بالشطاط الحنا وكنت كالصَّعْدةِ تحت السنان

الشطاط امتداد القامة والصعدة قناة الرمح.

وقاربت مني خُطاً لم تكن مُقاربات وثنت من عنان
ولم تدع فيّ لمُسْتمتع إلاّ لسانيّ وبحسبي لسان
أُدعو به الله وأُثْني به على الأمير المُصْعَبيّ الهجان

هو عبدالله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان ، وكان عوف بن محلم الشيباني ملازما له دهرا ثم حن إلى بلده وقال له هذه الأبيات يستأذنه بها :

فـقـرّ بـانـي بـأبـي أنـتـمـا — مـن وطـنـي قـبـل اصـفـرار الـبـنـان
وقـبـل مَـنْـعَـايَ إلى نـسـوة — أوطـانـهـا حـرّان والـرقـتـان
سـقـى قـصـور الـشـاذيـاخ الـحَـيَـاْ — مـن بـعـد عَـهْـدي وقـصـور المـيَـان
فـكـم وكـم لي عـنـدهـا دعـوة — أن تـتـخـطـاهـا صـروف الـزمـان

في كلام هاردي على حسنه وصدقه بعض الكبرياء ، كبرياء الشعور بأنه مفكر والفرح بالعمر الذي بلغه . وفي كلام عوف بن محلم تواضع ورقة ولطف وانكسار ــ ليس مرد ذلك كله إلى أنه كان خادم بلاط أمير خطير، بل هو شيء أصيل من نفسه ــ شيء روحي مرهف نفيس وديع .

كان عوف بن محلم الشيباني شاعرا محسنا . ترجم له ابن المعتز في الطبقات و ياقوت في الإرشاد وغيرهما ، رحمهم الله أجمعين ، ليست الثمانون سن ضعف مطلق ضربة لازم . نهضت البندقية على يدي ابن ثمانين . وكذلك نهضت ألمانيا الغربية بعد الحرب الماضية . وفي العلماء والأدباء بنو الثمانين كثير. وناهز سيدنا عمار بن ياسر التسعين وكان يقاتل في صفين و يرتجز ، رضي الله عنه .

وابن السبعين وابن الستين شيخ .

ومن قول سيدنا عمر رضى الله عنه إذا بلغ الرجل منكم الستين فإياه وإيا الشواب ــ وهذا شاهد عند النحويين في استعمال إياه وإيا في باب التحذير.

ومما يدل على حيوية السبعين نحو قول زميلنا الفاضل الأديب الشاعر اليمني العدني الصنعاني الدكتور محمد عبده غانم ، أنشده في مهرجان شاعري مصر والعرب شوقي وحافظ :

قـرأت أشـعـاركـمـا في الـصـبـا — ولـم أزل أقـرأهـا مـعـجـبـا
لـم تـنـسـنـي الـسـبـعـون حُـبـيّ لهـا — والـشـيـخ لا يـنـسى زمـان الـصـبـا

فسمى نفسه شيخا والقصيدة ملأى بالحيوية وروح النضال الفكري . كم وددت لو كان الدكتور أحمد الطيب رحمه الله حيا يشارك في هذا التكريم . كم كان سيسره لو...

إن لوًّا وإن ليتا عنـاء

توفي رحمه الله في تمام سن النضج سنة ١٩٦٢ م وكانت لنا سنة رزايا ــ كسرت فيها ساق محمد المهدي رحمه الله . وتوفي من قبل الأديب الشاعر الطبيب الوزير محمد أحمد علي رحمه الله .

بارك الله في الأحياء . ومد في عمر جمال ومكرميه وصاحب هذه الأسطر ذي القلب الفرح الحزين ... ذِكْرُ الأموات في ساعات إقامة الأفراح ــ (التكريم بلا شك من الأفراح) ــ من عادات أهل النيل أمر قديم معروف .

هل تذكرنْ أحمد يا جمال
كان فتى أديبا
مهذبا أريبا

وكان حقا بيننا محبوبا
وذا ذكاء نادر
وذا بيان ساحر
كم أعجب الطلاب إذ يحاضر
وناقداً قد كانا
مقتدراً فنانا
وطالما أنشدته الألحانا
هل تذكرن ... ... أحمد يا جمال
الذكريات نور
حين دجا الديجور
وامتدت الغابة والعتمور
الذكريات زاد
إذ ذهب الأنداد
وخفت من أن تقفر البلاد
الشعر فيه السلوى
به تذود البلوى
والذكريات طعمهن حلوى
كم الليالي سرّت
وأحزنت وغرّت
فاسعد بها كما قد استمرت

والحمد لله أولاً وأخيراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عبدالله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

كنتُ حريصًا أن أراه ففاتني ...

توفي الأستاذ الدرديري محمد عثمان الصائم ، صائم ديمة ، في شهر سبتمبر من العام الماضي ١٩٨٥ عن تسعة وستين عاماً قضى جلّها في التدريس ، وكان يدرس الانجليزية و يتقنها مع معرفة العربية والذوق الأدبي الرفيع . وكان رحمه الله لي صديقاً . وكان له من قلبي الوداد الخالص .

واتفق أن كتبت كلمة تكريم للاستاذ جمال محمد أحمد ، وزير الخارجية في بلدنا سابقاً وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة بمناسبة بلوغه السبعين ، فذكرت فيها بعض أولي التبريز من أبناء دفعة التدريس الذين كانوا في صفه وتخرجوا معه . وقد عمل الاستاذ جمال في ميدان التدريس زمنا قبل توليه الوزارة . وقد خصصت من هؤلاء الأستاذ الدرديري ببعض الحديث عنه . وكان البعد عن الديار في عملي حيث اعمل بالمغرب بمدينة فاس ، قد قطعني عن رؤياه مدة . فكنت حين قدمت لقضاء العطلة بالخرطوم في صيف عام ١٩٨٥ شديد الحرص على أن ألقاه وأطلعه على ما كتبت عنه قبل أن يتاح له نشر . وكان عهدي به يهش إلى ما أعرض عليه من نثر او نظم . وكنت ممّا أنتفع بتعليقه ونقده ، لحصافته وذوقه وفطنته مع سعة اطلاعه وصدق نصيحته عن بادرة وعن رَوِيَّة . فما راعني وأنا أهُمّ بالذهاب إليه إلا أن نعاه لي ناع ذكر أنه قد سمع منذ هنيهة خبر وفاته من مذياع أم درمان ، وأكدّ أنه هو الدرديري محمد عثمان الصائم ، صائم ديمة . الأستاذ المعروف ، من أبناء مدينة «القطينة» ، «إنا لله وإنا إليه راجعون» .

ذهبت إلى دار العزاء ، مُعَزِيّاً وحزيناً . لقد سبقني الموت فأخذه قبل أن ألقاه . «لكل أجل كتاب» . تذكرت أبا العلاء المعري إذ جمع أهبته للرحيل من بغداد مشتاقاً إلى والدته بمعرة النعمان وإذا بمنعاها ، قال في قصيده التي مطلعها :

هات الحديث عن الزَّوْراء أوهيتا ومـوقـد النّار لا تَكْرى بتكْريتا

يذكر ما دعاه إلى فراق بغداد بعد أن عَلِقَ حبُّها قلْبُهُ :

أثارني عنكُمُ أمران ، والدهٌ لم ألقها وثراء عاد مسفْوتا
أحياهما اللهُ عَصْرَ الْبَينِ ثُمّ قضَى قبْلَ الإياب إلى الذُّخْرَيْنِ أن مُوتا

أي أخرجني منكم على عجل أمران ، والدتي وكنت أحِنُّ إلى لقائها ، ثم هذا المال الذي نقص من يدي ولم أرد أن أسأل أحداً :

عاد مسفوتاً أي ذهب وضاع ، أذهبته الأيام والنفقة ، ثم قال : كان لي مال وكانت والدتي أيام غربتي حية . ثم قضى الله على مالي النفاذ وعلى والدتي الأجل حين أردت العودة وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وتذكرت المعري وحزنت وتعزَّيت كما يتعزى الحزين المفجوع . قال أبوتمام شيخ الأدب وشاعر العرب :

وقال عليٌّ في التعازي لأشْعَثٍ وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبَلْوى عزاء وحِسْبَةً فتُوْجَرَ أم تَسْلُوَ سُلُوَّ البهائم

أخوانُنا أدباء العصر ــ بل الصواب أن أقول إن من إخواننا أدباء العصر ، من يريدوننا أن ننظم شعر التفعيلة المسمى الْحُرّ في عَشْتروت وسايكي وأرفيوس و باخوس وغير ذلك من أصناف العبارات والألفاظ والمجاز والاستعارة من الكتاب المقدس ومن آلهة يونان والروم وهلم جرا . غير أننا بَشَرٌ

ضعاف . نفرح لخبر السرور من عرس ومولد ونجاح ، ونحزن للنعي وأخبار الكوارث والمصيبات . نُغَنِّي حين نفرح بالتهنئات وحين نحزن بالمرثيات . هكذا كان يفعل الشعراء البشر أولو الإحساس الصادق من العرب . هكذا يفعل الشعراء البشر أولو الإحساس من سائر الناس . صرنا هذه الأيام نخاف خوفاً شديداً من «حساسيات» الشعور بالانتماء إلى التقدم عند بعض إخواننا المعاصرين ممن يريدون الشعر دَفْقَةً شعورية كما يقولون و يكرهون ما يتبزونه بأنه «شعر المناسبات» من ضروب المدح والتهاني والتعازي ، هل الحياة بأسرها شيء سوى مناسبات تتلو مناسبات ؟ وما أحسن قول أبي العلاء المعري إذ قال :

وهل يأبُقُ الإنسان من ملك رَبِّه ... فيَخْرُجَ من أرضٍ له وسماءِ؟

وقال أبو الطيب :

لمن تَطْلُبِ الدنيا إذا لم تُرِدْ بها ... سرور مُحِبٍّ أو إساءة مُجْرِمِ؟

وهل هذا كله إلا من باب المناسبات ؟

لذلك أبعث إليكم سيدي بهذه الكلمة المنظومة في رثاء أخ حبيب كان من الأدباء العلماء المشتغلين بالدرس والتحصيل ومن خيرة رجال التربية ومن ذوي الذوق الجيد في الشعر، أحزنني فقده فأنطقني بهذه الأبيات لو أن ذلك يشفي غليلا .

نَعَوا لي دِرْدِيري فأحْسسْتُ حَسْرَةً ... على فَقْدِهِ تَنْغَلُّ فيَّ انغلالها
وكان صديقاً لِي وَكانَتْ مَوَدَّتي ... لهُ فَوْقَ أن يُلْفَى البِعَادُ أزالها
وكُنْتُ حَريصاً أن أراهُ فَفَاتَنِي ... كَذَلِكَ المنايا حِينَ تَرْمِي نِبالها
وكَمْ قد قَرَأْنا الشِّعْرَ أسْمَعُ صَوْتَهُ ... يُؤكِّدُ مَعْنَى لَفْظَةٍ وَظِلالَهَا
وشِعْرَ «شلي» نَخْتَارُ منه غناءَهُ ... لِقُبَّرةٍ جَوُّ الصَّفِيرِ خَلالَها (١)
فتشدو إذا تَسْمُو وتَسْمُو إذا شَدَتْ ... وتَفْرغُ في لَحْنٍ شدتْهُ انفعالها
لأعلَى فأعلَى في سماءٍ رَحِيبَةٍ ... بها وَجَدتْ مِلْءَ الجناحِ مجالها
ألا تِلْكَ أيَام الشَّباب تَصرَّمت ... تذكَّرْتُ منها طِيبَها وجمالها
وما كنت أدْري أن سَيَنْجَابُ حُسْنُها ... وَتَبْلُو حُفَالاتِ الْوَرَى وحُثالها (٢)
ومن مِثْلِ دِرْدِيري عَفَافاً وَنَجْدَةً ... وعِزَّةَ نفْسٍ لَمْ تَجِدْ من أذالها
وكان أديباً ناقداً لَمَحاتُه ... تُفِيدُ عِباراتِ البيانِ كَمالها
وذا فِطْنَةٍ حتَّى لَوانَّ فَطانَةً ... بها أحَدٌ نالَ السَّماء لنالها
وكان نجيباً ألْمَعِيّاً مُهَذَّباً ... له نَفْسُ إنسان حَمِدْنا خِصالها

(١) شلي Shelly الشاعر الانجليزي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢م) وهنا إشارة الى منظومة له في القُبَّرة بضم القاف والباء المشددة المفتوحة وإشارة الى قول طرفة بن العبد: خلا لك الجو فبيضي واصفري .

(٢) الحُفالة والحُثالة متقاربتا المعنى وكلتاهما من ألفاظ الحديث الشريف .

وكـــان أخـــا الإخـــوانِ فـيـهِ رَوِيَّـةٌ   وَحَـزْمٌ إذا مـا كَـلِـمـةُ الْـحَقِّ قـالها
وقـد كـان دِرديـرِي سَـخِـيًّـا بِـمَـالِـهِ   إذا مَـعْـشَـرٌ بُـخْـلٌ بمـال أمـالها
نَـعَـوْا لِـي درديـرِي فَـقَـدْ سـاءَ رُزْؤُهُ   فُـؤادِي وَأجْـرَى عَـبْـرَتِـي وأجَـالها
سَقَى قَبْرَ دِرديرِي سَحابٌ مُجَلْجِلٌ   بِرَحْمَةِ رَبِّي ما تُغِبُّ سِجَالها (١)
ويـا عَيْنُ سُحِّي واسْكُبِي وَتَحدَّرِي   عَـلَـيْـهِ وزِيـدي للـدمـوع احـتـفـالها
ولا تَـبْـخَـلِـي يـا عَـيْـنُ إنَّ مُـصَـابَـهُ   عـظـيـمٌ وكـم مِنْ أدْمُعٍ قد أسالها
عـزاءٌ لـكـم أهْلَ الْقُطَيْنَةِ واصبـروا   كـذا هـذهِ الـدُّنـيـا تُـرِيـنـا زوالهـا
سقت قَبْرَ دِرديرِي بن صائم دِيمَةٌ   سـحـابَـةُ غُـفْـران تُـدِيـم انـهـلالها
وبُـورِكَ فِـي نـجـلِ الْـفَـقِـيـدِ وآلِـهِ   كـمـا كـان نَـجْـلَ المكرماتِ وآلها

---

(١) السِجال بكسر السين بوزن الرجال مثل بفتح فسكون والسجل الدلو الكبير الذي يستقى به الماء من البئر ومعنى السجال هنا الدفعات من الرحمة والسجال تأتي بمعنى المساجلة أي المبارة وأصلها من الاستقاء من البئر والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين .

في رثاء الأستاذ جَمَال محمّد أحمد
رحَمَه الله تعالى

— ١ —

ذكرتُ جمالاً صديقي درَجْ   وكَمْ لجمالِ الحياة ابتهجْ
وكان فتى ذهبيَّ المُحيَّا   يرى فيه ضوءُ الحياة انبلج
بل الموت كان على الناس حتْماً   ونهْجاً ولا بُدَّ أن يُنْتَهج
ذكرتُ براعتَهُ في الحوارِ   إذا جدَّ أو بالمزاح امتزج
وعشنا زماناً وراءَ البحار   وجمْرُ الشباب شديد الوهج
ونقْرأ في شَغَفٍ لا نَمَلُّ   بذوقٍ سليم وفكرٍ نَضج
ذكرت قراءتَنا ناقدينَ   فذا مستقيمٌ وذا ذو عوَج
وكان العيارُ شُعُور القلوب   نُقِيمُ على ما نحسُّ الحُجَج
إذا حُكِّمَتْ أيدُلوجيَّةٌ   على أيدُلوجيَّةٍ لم نَعُج (١)
قرأنا قضِيَّةَ كَفْكَا مَعاً   فقال جمالٌ لنا في الدَّرَجْ (٢)
كأنَّا هنا في حكايةِ كَفْكَا   نُسَاقُ ليُقْطَع منَّا الودَج
وذلك أن السلالم طالت   وكان الصعود بها ذا حرج
وكان مقيماً لدى فندق   على ضيقه عالياً كالبُرُج (٣)
وزائر لندن في بدئه   يرى كُلَّ شيءٍ بها كالسَّمِج
وكان جمالٌ تخطى الصعاب   وفي سِرِّ لندن حقاً وَلج
وقد خَبَر الخُشْنَ منها الخبيء   وأحزنَهُ حين منها خرج
كما حزن السرُّ نجْلُ الخليفة   للبَيْنِ كلٌّ بكى او نَشج (٤)
وكان القطار لدى «يُسْتُنٍ»   سَمِعْنا الصفير له وانزلج (٥)
وقد كان ذلك أوْجَ الشباب   الذي مُشْرِقٌ عندهُ كل فج
وعُدْنا جميعاً نَؤُمُّ الصِرَاع   صراعاً كَرِهناهُ أفْنى المهج
أتاني رَسُولٌ نَعَى لي جمالاً   فحَقَّ الدُّمُوع له أن تُثَج
وإنَّ دُمُوعيَ هذا القَرِيضُ   الذي فيه شَجْوى شدا أوْ هَزَج
بكيْتُ عليهِ بوجْدٍ شَديدٍ   وَمِثْلي عليه بَكَى وانْتَخَج

توفي الاستاذ جمال رحمه الله في صباح أول سبت من ديسمبر ١٩٨٦ ونظمت هذه المرثية كلها في ١٩٨٧/٢/٢٤م :

(١) ايدلوجية أي عقيدة عصرية من هذه العقائد السياسية ونحوها .

(٢) قضية كفكا قصة قرأناها بالانجليزية مترجمة (The Trial by Kafka) وكفكا كاتب تشيكي كتب في سنوات العشرين .

(٣) عاليا حال ولذلك نصبها أو تعلقها على «مقيما» وتجعل كالبرج صفة لفندق وعلى الاول متعلقة بـ(عاليا) .

(٤) و(٥) السيد سر الختم الخليفة معروف و يستن محطة (Euston) .

— ٢ —

نَعَوْا الى جمالاً فقالوا ذَهَبْ وكان سنا وَجْهِهِ كالذَّهَبْ
وكان امرأ عسجديّ الأديم ترى فيه ماءَ الحياةِ اصطخب
وكان ذكيّا طموح الفؤادِ وَحُلْوَ الفكاهة مُرَّ الغضب
سمعنا به وَهْو في الثانويّة ثمَّ عرفناه وقت الطلب
ببختِ الرّضا ووجدناه فيها بحُسْنِ الحديث لنا قد جَذَب
وأبناء دفعته قبْلَهُ عرفنا هُم الفضلاء النّجُب
مضَوْا كلُّهم غير شَيْخَيْن نرجُوُ معاً لهما طول عُمْرٍ كُتب
وكان جمال له بادراتٌ من القوْل فيها بسهم ضَرَب
وعاتبه الشيخ عبد العزيز يوماً فجاء بعُذْر عَجَب (١)
فسرّ لسرعته في الجواب فقال له أنت بالقولِ طب
ومن خُلُق الشيخ عبد العزيز يرى الفِكْرَ آصرة كالنسبْ
كأنّ جمالا إلى قلبه بفضل الذّكاء دنا واقترب
وكنا نرى الشيخ عبد العزيز لنا في الدويم أباً أو كأب
وكان جمال يحب من الشعـ ـر بَعضُ الطرائف إذ تُنْتَخَبْ
وكان يميل إلى المازنيّ وَيمقُت أسلوبَ أهل الخُطب
ويقرأ ليس لحب الظهور بذاك ولكن لحب الأدب
وكان له كلف بالرواية والمسرحية حين اغترب
وأذكر لما مضينا لنشهـ ـد تمثيلَ «هذا طريق العطب» (٢)
وكان اسمها وحده كافيا لوانا عقلنا لأن تُجْتَنَب
ولكنها فتنة قد أردنا بها للحضارة أن ننتسب
فلم نلف من بعد رفع ستارتها أيّ فائدة تكتسب
سئمنا وكانت فراغا جسيما تحسُّ بجسمك منه التعب
وكَان بها جانب من غموض على غير شيءٍ غموض كذب
فضاق جمال بها واكتأب وقال هلمّ نلُذْ بالهرب

(١) هو استاذنا الشيخ عبدالعزيز عبدالله رحمة الله وكان بارعا في العربية والحساب والدويم بلدته.

(٢) هذه ترجمة اسم المسرحية وهو: (This Way to the Tomb).

لقد خيّبت ظنّنا فخرجْنا … لنقرأ في الخانِ شعر العرب
وقال لنا أحمد إنني … نهيتكما عن طريق العطب
أليس اسمها وحده كافيا … غرابُ الردى عنده قد نعب
وخالفتماني وضيعتما … نقودكما في مكان خرب
وكان دعانا لفِلْم لَوانّنا … ذهبنا له كان هذا أحب
جمال مضى ومضى أحمد … ومنذا إلى الموت لم يستجب
لقد نغّص الموت طعم الحياة … ولكنّ ذلك حَتْمٌ وجب
وإن فؤادي لذكراهما … حزين ودمع جفوني سَرب

— ٣ —

نَعَوْا لي جمالاً صديقي الفَطِنْ … وجئت الصلاة فقالوا دُفِنْ
بكيت عليه بدمع غزير … وقلبي لموت جمال حزن
بكيت عليه بكاء خفيا … وآخر مني عليه علن
أقول لصحب همو كرّموا … جمالاً جمالٌ بهذا قمن
ألا عجّلوا نشر ما قد كتبتم … ليقرأ إذ روحه في البَدن
أخاف عليه طروق الردى … ألم تعلموا أنه قد أسَنّ
سيفرحه ان يرى ما كتبتم … بعينيه قبل انطواء الكفن
عزائي أن قد رأى ما كتبت … لتكريمه من ثناء حسن
وأنّيَ لاقيتُه قبل أن … يفرّقنا رَيْب هذا الزّمن
تذكّرت عبد الرحيم الأمين … النجيب اللبيب الزكيّ الزُّكَنْ (١)
تَنَبَّه أن انقلابا سيأتي … وحذّر من شؤمه المقترن (٢)
وقد قال لي ذاك قبل الوَفاةِ … وسمعي وعى وبقلبي حُزن
وأحمد خلي تذكرته … أخو الحلم والأدب المتّزن (٣)

---

(١) الزكي بوزن عمر أي ذو الزكا والفراسة.
(٢) كان ذلك في مايو سنة ١٩٦٨م.
(٣) هو الدكتور أحمد الطيب أحمد رحمة الله.

وكان إلى نفسه المُطْمَئِنةِ   كم ذو الحجا أبداً يطمئن

وقد زرت تُربته مرّة   ودمعي عليها غزيرا هتن

وجاور آباءه المتقين   أهل الكتاب وأهل السنن

تذكرت مهديّاً الشاعر   الكبير المجيد المِعَنّ المِفَن

لقد أقفر الشعر من بعده   سوى قرزمات طنين يُطَنّ

وجيل أدونيس من شعرهم   ونقدُهُمو هو بَعْضُ الفِتَن

به يبتغون تراث العروبة   بالهدم إنا بهم نْمتَّحن

مقابِرُ فاروق غودر فيها   فتى كالسّراج يضيء الدُّجن

أتانيَ منعَاه لمّا نأيت   بعيداً وفارقت أرض الوطن

بكَيت عليه بوجد شديد   وفي القلب من ذكره لي شجن

أتاني رسول بمنعي جمالٍ   كذلك تطرق هذى المحن

خرجت أريد عليه الصلاة   فلم ألفه قيل لي قد دُفِن

فيا رحمة الله خُصّي جمالاً   بشؤبوب ديمتك المرجحن

وذكرى جمال أقيمي لها   منازل في الخلد فوق القُنن

سيحيا بذكراه بين الورى   ونحييه فيها بفكر وفن

ويذكره مجمع الخالدين   والذكر غاية أهل الفِطن